نشأة الفلسفة في البيئة الإسلامية
قبل عصر الترجمة

إنَّ كثيراً من المشكلات الفلسفية قد أُثيرت، ونُوقشت من قِبَل المسلمين، وخاصّةً صلةُ الله بالإنسان، والعالَم، ووجودُ الخير والشرِّ، والحرية، والاختيار، والتنزيه، والعدل، وغيرها من المشكلات الفلسفية. قد أبدى فيها زعماءُ الفكر الإسلاميِّ آراءَهم المختلفةَ التي يستندُ كلٌّ منها إلى أدلةٍ عقليةٍ تستأنسُ بالنَّقل، أو أدلّةٍ نقليةٍ يُؤيِّدُها العقل.

فكان «واصل بن عطاء» تلميذاً لـ«الحسن البصريِّ»، ثم انفصل عنه وكوَّنَ اتجاهاً آخرَ. وقد أثار بقوة كثيراً من المشكلات الفلسفية وأجابَ عليها، ولم يكن للمسلمين في عهده علمٌ بالتراث اليُونانيِّ الخاصِّ بالإلهياتَ، أو بالنفس، أو بالأخلاق، حتى إنَّ مَن سبقوا «واصلَ بن عطاء» أثاروا المشكلات نفسَها، وأجابوا عليها، وقبل كلِّ ذلك، فإنَّ القرآن الكريمَ تعرَّضَ لمسائلِ الإلهيات، والأخلاق، والنفس، والقدرة، وأفعال العباد.

الاتجاهات الفلسفية
وجدت في البيئة الإسلامية منذ نشأتها

إذا استعرضنا التاريخَ الفكريَّ في العصور القديمة والحديثة، نجدُ في كلِّ أُمةٍ من الأمم؛ مُتبَدِّيةً أو مُتحضِّرةً، ثلاثةَ اتجاهاتٍ تعملُ في آنٍ واحد:

1 ـ الماديّون

2 ـ العقليون

3 ـ الرُّوحانيُّون.

1 ـ الماديّون: الذين يَرَون أنَّ العالَمَ وُجدَ بلا صانعٍ، وأنَّ الحيوان من النُّطفة، والنُّطفةُ من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً.

2 ـ العقليون: الذين يَرَون أنَّ مشكلات ما وراء الطبيعة، والأخلاق، مشكلات الدنيا والآخرة، إنَّما يَحلُّها العقلُ بأقيسة وبراهينَ منطقية.

3 ـ الرُّوحانيون: الاتجاه الرُّوحيُّ الإلهاميُّ البصيريُّ، يَرَون أنَّ مسائل ما بعد الطبيعة، ومسائلَ الأخلاق، يُمكنُ معرفتُها عن طريق الاتصال المباشر بالملأ الأعلى، ولن تَتأتَّى المعرفةُ الحقيقيةُ لِمَا وراءَ الطبيعةَ والأخلاق إلاَّ عن طريق هذا الاتصال.

هذه الاتّجاهات الثلاثةُ توجدُ في كلِّ أمَّةٍ على تفاوتٍ فيما بينها، هذا التفاوت يتأرجح بحسب الظروف الاجتماعيّة والثّقافيَّة.

وإنَّ هذه الاتجاهاتُ الثلاثةُ وُجدتْ في الأمة الإسلامية منذ تكوُّنها، ولكنَّها لم تظهر ظهوراً بيِّناً إلاَّ في عهد الاستقرار.

فالأمة الإسلامية كانت مُتشبِّعةً بالفكرة الدينية، وكان الخلفاءُ وأمراءُ المؤمنين يَهُمُّهُم أن لا تَشيعَ الفكرُ الهدَّامةُ والمبادئُ الضالّةُ في الدولة الإسلامية.

ـ فالاتجاهُ الماديُّ، مثلاً: لم يظهر ظهوراً قوياً، مع أنَّه كان موجوداً، ثمَّ إنَّ ترجمةَ الفلسفة اليونانية لم تكن سببَ وجود هذا الاتجاه الماديِّ؛ فقد كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام، ثمَّ وُجدَ بعد الإسلام كما هو موجودٌ في كلِّ أمة من الأمم. وقد حكاه القرآن الكريمُ عن طائفة في الجزيرة العربية كانت موجودةً قبل الإسلام، وكان من حكمة القرآن الكريم أنْ ذكر رأيَهم ومُعتقداتهم الباطلةَ بمقدِّمات تُبيِّنُ أنَّه مَن حادَ عن جادّة الصواب إنَّما يَحيدُ لهوىً في نفسه، لا للمنطق والتبصُّر. ثم أعقب الرأيَ بالفكرة الصحيحة، وبيَّنَ أنَّ حُجّتَهم على ما يدَّعون لا تتصلُ بالمنطق، ولا بالتفكير، بل هي شيءٌ أشبهُ بعَبَث الأطفال، يقول الله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: 23]

ـ أما الاتجاه الثاني والثالث: فقد وُجدا منذ عهد مبكِّر في الفترات الأولى لتكوُّن الدولة الإسلامية، وكان الاضطرابُ في البيئة الذي انتهى بالفتنة الكبرى بين الصحابة من أهمِّ العوامل في نُمُوِّها.

هذه الفتنة جعلت أنصارَ كلِّ فريق يتصارعون بالمنطق والبُرْهان والحُجَّة، كما يتصارعون بالسيف والرُّمْح والسِّنان، وجعلوا يُؤوِّلون القرآن الكريمَ، ويُفسِّرونَه على ضوء ما يؤمنون به من مبادئ.

هذه الفتنة وَجَّهت طائفةً من المسلمين إلى الاعتزال، والزُّهد، والاتجاه الرُّوحيِّ، وطلب الحقِّ والمعرفة عن طريق العبادة والتقوى والتأمُّل.

هذه الفتنة أوجدت نُمُوّاً في الاتجاه العقليِّ، والاتجاه الرُّوحيِّ، وهو وإنْ دعا إلى الجهاد، وإلى السِّيادة في الأرض، فإنَّما دَعوتُه لذلك من أجل إعلاء كلمة الله، وحتى يكونَ الدينُ كلُّه لله.

إنَّ البحث في القرآن الكريم اضطرَّ المسلمين إلى استعمال عقولهم؛ فهو يَحُثُّ على النظر والتأمُّل، وعدم أخذ الأمور بالتقليد والاتباع للأجداد والأسلاف، وإنَّه سَخِرَ من هؤلاء الذين مَثَلُهم كمَثَل الحمار يَحمل أسفاراً. ومن هؤلاء الذين قالوا:

1- ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

2- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾

3- ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

إذن، إنَّ الحضارة الإسلاميةَ استكملت مُنذُ نشأتها تقريباً البذورَ الأولى للاتجاهات الفكرية، هذه الاتجاهاتُ أخذت تتطوَّر وتنمو تَبَعاً للعوامل الداخلية: (اجتماعيةً كانت أو دينيةً)، التي وُجِدَت في البيئة الإسلامية، ولكنَّ هذا النُّمُوَّ كان في البداية بطيئاً؛ لانشغال الدولة الإسلامية بالفتوحات، وتوطيد دعائمها كدولة.

ولَمَّا بدأت حالةُ الاستقرار في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، أخذت هذه الاتجاهاتُ تنمو وتتطوَّر بسرعة مستقلَّة عن كلِّ العوامل الأجنبية الأخرى. والحديثُ مقصورٌ على الناحية الفكرية النظرية، أو بتعبير آخر: على الإلهيات، والأخلاق. ومن المعروف: أنَّ الإلهيات، والأخلاقَ لم يُتَرجَما إلاَّ في أيام «المأمون»، ومع ذلك: كان في هذه الفترة (معتزلةٌ وصوفيةٌ ومُلحدون) يتصارعون فيما بينهم تَصارُعاً لا هَوادةَ فيه.

والحقُّ يُقال في صراحة تامّة: إنَّه لو لم تُتَرجَم إلهياتُ اليونان، وأخلاقُهُم، ولو لم تُتَرجَم عقائدُ الفُرْس والأفكارُ الصوفيةُ الهنديةُ، لسارت هذه الاتجاهاتُ الفلسفيةُ الإسلاميةُ سيراً طبيعياً حتى بلغت نهايةَ الطريق إنْ كان لطريق (الإلهيات والأخلاق) العقليِّ والروحيِّ والماديِّ نهايةٌ ينتهي إليها.

انحراف مؤرخي الفلسفة الإسلامية عن المنهج الصواب

إنَّ المنهج الصحيحَ في دراسة الفلسفة الإسلامية هو: التدرُّجُ مع التفكير الإسلاميِّ خطوةً خطوةً، والسيرُ معه درجةً درجةً، دون التعصُّبِ لفكرة معيَّنة. لكنَّ أكثر المؤلِّفين في الفلسفة الإسلامية تَعصَّبوا ـ مُتعمِّدين، أو غافلين ـ لفكرة مُعيَّنة هي: أنَّ الفلسفة الإسلاميةَ تقليدٌ للفلسفة اليونانية، أو هي: الفلسفةُ اليونانيةُ مكتوبةً باللغة العربية. وقد تعصَّبَ الأُستاذُ «سانتلانا» للفلسفة اليونانية، وجعلَها أصلَ الفلسفة الإسلامية، فقال ـ أثناءَ تدريسه المذاهبَ الفلسفيةَ في جامعة مصر القديمة ـ: «إنَّ العلوم الإسلاميةَ مؤسَّسةٌ منذ نشأتها عَلَى علوم اليونان، وأفكارِ اليونان، وأوهامِ اليونان».

لقد أطلق «سانتلانا» منذ البداية مبدأً غيرَ قابلٍ للأخذ والرَّدِّ، وجزم فيه جَزْماً مُبْرَماً: أنَّ الفلسفة اليونانيةَ أصلٌ للفلسفة الإسلامية، وقد أخذَها المسلمون من اليونان، وكان يَعرِضُ أوْجُهَ التشابُهِ بين الأفكار الإسلامية واليونانية.

وقد سار في هذا الاتجاه والطريق كثيرٌ من المتعصِّبين، مع أنه يجب الانتباهُ إلى أنَّ تقليد اللاَّحق للسَّابق يُشترط فيه أمورٌ هي:

1 ـ التشابه، والتطابق التامُّ بين الفكرتين.

2 ـ إثباتُ أنَّ اللاحقَ تَلقَّن مباشرةً ـ بالتَّلْمَذَة أو الكُتُب ـ عن السابق.

3 ـ أنْ لا تكون الأصالةُ والعبقريةُ متوفرة في اللاَّحق، أي: أن تكونَ في اللاَّحق طبيعيةَ التقليد، وإلاَّ لا يكون مُقلِّداً.

وقد عالج الفيلسوف «هنري برجسون» هذه المشكلةَ التي تورَّط فيها كثيرٌ من مؤرِّخي الفلسفة، فقال: «إنَّ الفيلسوف لا يبدأ أفكاراً سابقةً له في الوجود، وأكثرُ ما يُمكن أنْ يُقالَ: إنَّه يصلُ إليها. فإذا أراد الإنسان أن يشرح الجديدَ وينشُرَهُ لا بُدَّ له من أنْ يُعبِّرَ عنه مُعتمداً على القديم، مُستخدماً المشكلات التي سَبَقَ عَرْضُها، والحلولَ التي عُولجَت بها، أي: (الفلسفة والعلم اللَّذَين كانا في عهده)، ولا شكَّ أنَّ المشكلات التي يُعنى بها الفيلسوف هي المشكلات التي أُثيرَتْ في عصره، ويمكنُ أن نَجدَ في نظرياته التي يَعرِضُها آراءَ كثيرٍ من معاصريه أو سابقيه.

فكلُّ مذهب من مذاهب الفلاسفة يحتوي على عدد لا يُحصَى من أوجه الشَّبَه، أو التقارُب بينهم، كلُّ ذلك ليس إلاَّ مظهراً خارجياً، أمَّا أساسُ المذاهب وجوهرها فهو شيءٌ آخر)).

الواقع: أنَّ الأستاذ «سانتلانا» لم يُراعِ كلَّ الشروط اللاَّزمة في التقليد، ولم يَعرف معنى الأصالة والتقليد، وخاصَّةً عند المسلمين؛ فجَزَمَ أنَّ أفكار اليونان وعلومَهم وأوهامَهم كانت أساساً للعلوم الإسلامية منذ بَدْء نشأتها. مع أنَّ نشأة العلوم الإسلامية ـ أُسُساً ومبادئَ ـ تدرَّجتْ تَكوُّناً ووَضْعاً منذ بدء الإسلام نفسه، أي: إنَّ أساسَها كان (الوحيُ نفسُهُ).

والعلوم الإسلاميةُ إذا أطلقناها كانت: عقيدةً، وشريعةً، و أخلاقاً، كانت تفسيراً للقرآن، وشرحاً للحديث، وجَدَلاً حول العقيدة التي نزل بها الوحيُ، وكانت اتجاهاً رُوحيّاً، يَستمدُّ مبادئَهُ ونظرياته من القرآن الكريم، ومن السُّنَّة، ومن التأسِّي بالرَّسول الأعظم ﷺ.

وإذا أردنا شيئاً من التمثيل الواقعي:فنقول:

في الاتجاه الرُّوحيِّ:

1 ـ إنَّ «أبا ذَرٍّ الغفاريَّ» لم يَدرُس الأفلاطونيةَ الحديثةَ، ولم يدرس اشتراكيةَ «أفلاطون»، ولم يَتَّخذ ذلك أساساً لدعوته (الزهد).

2 ـ وإنَّ أهلَ الصُّفَّة لم يَتَلمذوا على الأفلاطونية الحديثة، أو على الفيثاغورية، فيَتَّخذوا عنهم الزُّهدَ منهجاً وسَنَناً (التصوف).

أما من ناحية التشريع فنقول أيضاً:

1 ـ إنَّ سيِّدَنا معاذاً، أو سيِّدَنا عمرَ، أو سيِّدَنا عليّاً، أو الإمامَ مالكاً، إنَّهم لم يدرسوا نظريات اليونان أساساً لفَتواهُم وأحكامهم، وأمَّا البحثُ في القَدَر وغيره من المشكلات الإسلامية (الإلهيات)؛ فإنَّها نشأت منذ عهد مبكِّر في الإسلام. وقد تناقش الصحابةُ الكرامُ في حياة الرسول صلى الله عليه وسلَّم في هذه الأمور، مع أنَّهم لم يكونوا يَعرفون شيئاً عن فلسفة «أفلاطون» و«أرسطو» وشروحاتهم.

وقد استمرَّ الجدلُ والحديثُ في مسائل الكلام هادئاً بطيئاً، ثم سريعاً إلى أنْ نشأ «واصلُ بنُ عطاء» و«عُمَرُ بنُ عُبَيد» و كَوَّنا فيه مذهباً على شيء كثير من النُّضْجِ العقليِّ، ومع ذلك: فإنَّ الفلسفة اليونانيةَ ـ من إلهيات وأخلاق ـ لم تكن قد تُرجِمَتْ بعدُ.

آريُّون وسَاميُّون:

إنَّ النزاع بين الشرق والغرب قديمٌ ومستمرٌّ، وهو نزاعٌ حربيٌّ، وفكريٌّ أيضاً، ويحاول الغربُ أن يُقلِّلَ من قيمة الشرق؛ ليَسُودَ ويستعلي دائماً. وكما أنَّه استعمل من أجل السيادة المادية الوسائلَ الماديّةَ، فإنَّه استعمل الوسائلَ الفكريةَ لإضعاف الرُّوحِ المعنويةِ في الشرق، فقَسَّموا الجنسَ البشريَّ إلى نوعين:

الجنسِ الآريِّ: ويتمثَّلُ في: أوربا، وخاصّةً في شمالها.

الجنسِ السَّاميِّ: ويتمثَّلُ في: الشرق الأوسط، وخاصّةً: الجنسَ العربيَّ.

وتَخيَّلوا مُمَيِّزات كلِّ نوعٍ وجنس، وانتهى بهم الوهم إلى أنَّ:

الجنسَ الآريَّ مبدِعٌ، والجنسَ السَّاميَّ تابعٌ ومُقلِّدٌ، وهو بطبيعته كذلك، وسيكون كذلك أبداً.

ونتيجةً لهذه المُقدِّمات الزائفة؛ فإنَّ الشرق لم يكن له فلسفةٌ في الماضي؛ لأنَّ الفلسفة هي ابتداعٌ واختراعٌ، وهي من خصائص الجنس الآريِّ، وليس للشرق أيضاً فلسفةٌ في الحاضر، ولن يكونَ له فلسفةٌ في المستقبل، وما يُسمَّى: فلسفةً إسلاميةً، ليس إلاَّ تقليداً ومُحاكاةً لليُونان، هو فلسفةٌ يونانيةٌ مكتوبةٌ بلسان عربيٍّ.

وقد تَبنَّى «رينان» هذه الفكرةَ في أواخر القرن التاسعَ عشرَ، وكان له أثرٌ كبيرٌ بالغٌ في نشرها ورَوَاجها. وقد أيّد المستعمرون الفكرةَ بجَاههم ومالهم، حتى جعلوا هذا السَّرابَ كأنه حقيقة، وأيَّدها أعداءُ الإسلام أيضاً، فانتشرت شرقاً وغرباً على أنَّها حقيقةٌ مطلقةٌ، حتى إنَّ دارسي الفلسفة الإسلامية من الغربيِّين يبدؤون دراستَهُم بمُوجَز عن الفلسفة اليونانية وأثرِها، وقد تحدَّث عنها «ديبور» و«سانتلانا»؛ حيثُ أشادا بقيمة التراث اليونانيِّ وفضلِه على التراث العربيِّ.

لقد جارى بعضُ الشرقيِّين الغربيين في آرائهم وتفكيرهم حينما كتبوا عن الفلسفة الإسلامية، ونَحَوُا المنهجَ الغربيَّ؛ حيثُ بدأوا في الكتابة عن الفلسفة اليونانية، وشرحوا آراءَ الطبيعيِّين، ثم آراءَ المدارس التي سبقت «سقراط»، ثم استفاضوا في شرح آراء «أفلاطون»، و«أرسطو»... وهكذا؛ ليُبيِّنُوا أهميةَ الفلسفة اليونانية على الفلسفة الإسلامية.

خطأ المؤرِّخين وتعسُّفُهم

والمؤرِّخون (سواء كانوا شرقيين أوغربيين)، ليسوا على صواب منهجيٍّ؛ لأمرين:

1 ـ حصروا أنفسهم في إطار محدود وهو: القول بالتقليد، والتأثُّرُ والمتابعةُ.

2 ـ وضعوا القارئَ لأوَّل وَهلة تجاهَ فكرةٍ مُعيّنة، يُوحُون إليه بصحَّتها، فهو إمَّا أن يتابعَهُم أو يَنقُدَهم.

إنَّ المؤرِّخ للفلسفة الإسلامية يبدأ تأريخُهُ بفصلٍ، أو فصول عن الفلسفة اليونانية، وعن مدارسها، وبذلك يكونُ منذ البداية قد انحاز إلى فكرةٍ محدودة وتَعصَّبَ لها. وقد استعمل كثيرٌ من المؤرِّخين في مؤلَّفاتهم كلمات: (التقليد ـ التلفيق ـ والأخذ)؛ التي تشيرُ إلى تعسُّف في حقِّ الفلاسفة المسلمين، وإجحاف ومجازفة وتَهوُّر. وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ حول هذا الموضوع، منها:

أ ـ أنَّ النفس الإنسانيةَ: إمَّا أن تكون خالدةً، أو فانيةً، ولا رأيَ ثالث. فإذا قال أحدُ الفلاسفة المسلمين: إنَّ النفس خالدةٌ، سارع مؤرِّخو الفلسفة وقالوا: إنَّه أخذها عن «أفلاطون»، أو عن الأفلاطونية الحديثة، وإذا أنكر ذلك قالوا: إنَّه يُتابعُ «أرسطو».

وإذا قال: إنَّ صفاء النفس وشفافيَّتها يؤدِّي إلى اتصالها بالملأ الأعلى، سارع مؤرخو الفلسفة إلى القول: بأنَّه أخذها عن «أفلاطون»، أو عن الأفلاطونية الحديثة، وإذا أنكر ذلك قالوا: إنَّه يُتابعُ «أرسطو».

وقد يبلغ التعسُّفُ مُنتَهاهُ حينما يتحدَّثون عن الثَّقافة الإسلامية ككلٍّ، فيقولون: إنَّ التصوُّفَ الإسلاميَّ نتيجةُ ثقافة أجنبية دخلت في الإسلام، وإن الفلسفة الإسلامية تقليدٌ للفلسفة اليونانية، وإنَّ التشريع الإسلاميَّ يَستمدُّ من التشريع الرومانيِّ. مع أنَّ الواقع يُبيِّنُ أنَّ التصوُّفَ

الإسلاميَّ هو أثرٌ نَجدُ أُصولَه في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وحياة النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم الشخصية. ولكنَّ المستشرقين يَرَون: أنَّ التصوُّفَ في الإسلام مأخوذٌ من المسيحية، أو تَراهُ في الديانة الفارسية، ويَراهُ قومٌ: أنَّه أثرٌ من آثار العقائد الهندية، أو أنَّ أُصولَه من الأفلاطونية الحديثة، حتى إنَّ الشرقيِّين يَتجادلون حولَ أُصول التصوُّف ومصادره الأجنبية عن الإسلام.

ولكنَّ الحقائق تُشيرُ إلى أنَّ الزهد أو التصوُّفَ كان منذ ظهور الإسلام ونشأ معه، وأنَّ التشريع وُجدَ مع القرآن الكريم، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَثلاً حيّاً لتطبيقها، وكذلك شأنُ الكثير من الصحابة.

انهيارُ نظرية التَّفرقة بين ساميِّين وآريِّين

لقد انهارت نظريةُ التفريق بين ساميِّين وآريِّين على يد الغربيين أنفسهم، أي: على يد علماء أخلَصُوا ضمائرَهُم للعلْم وحدَهُ، لا على يَد المستشرقين من رجال الاستعمار وأتباعه.

لقد ذكر الغربيون أنَّ هذه النظريةَ الزائفةَ في نشأتها تَرجعُ إلى أسباب، منها: العواطف، والتعصُّبُ، والهوى. بالإضافة إلى الاستعمار، والعداوة للإسلام والمسلمين. وبانهيار هذه النظرية انهار كُلُّ ما بُنِيَ عليها من زَيْف وباطل؛ لأنَّ العقل والعلمَ أثبتا بُطلانَها؛ لأنَّ دُعاة هذه النظرية؛ التي تقول: بتفوُّق الجنس الآريِّ على غيره، لم يستطع أحدٌ من هؤلاء الدُّعاة أن يأتيَ بسَنَد علميٍّ واحد يُثبتُ صحّةَ ما يقول. والذي أُثْبتَ أنَّ كلَّ الأمم التي هي من الأسرة الآريَّة هي خَليطٌ من عناصر الأجناس الأخرى؛ إذ ما من أمة تَعتزُّ بأنَّ لها النَّقاءَ الكاملَ.

الرَّأي الصَّحيحُ هو رأي فلاسفة الإسلام أنفسهم

نحن لا نريد أنْ نَنفيَ أثرَ الفلسفة اليونانية في الفلسفة الإسلامية نفْياً تامّاً؛ إذ إنَّ فلاسفة الإسلام أنفسَهم ذكروا القولَ الفصلَ في الموضوع، منهم: «الكندي»، و«ابن سينا»:

فـ: «الكنديُّ» في بعض كُتُبه شَكرَ الفلاسفةَ الذين قبلَه، واعترف بأنَّهم قصَّروا عن بعض الحقِّ، واعتذرَ عن تقصيرهم هذا؛ لأنَّه لا يتأتَّى لشخص واحد أن يحيطَ بأطراف الحقِّ، وإنَّما كلُّ ما يمكن أن ينال الشخصَ في حياته بجدِّه وجُهده شيءٌ يسيرٌ من الحقّ، بل إنَّ بعض الناس رغم جدِّه وجُهده لم يَنلْ شيئاً منه.

و«ابن سينا» أيضاً استعرض كلامَ السابقين فيها، حقّاً وباطلاً، قصوراً ونقصاً. هذه الآراء غَربَلَها فلاسفةُ الإسلام، وحافظوا على الحقِّ منها، وتركوا باطلَها، وأكملوا ما يحتاج إلى التكملة، وزادوا ما يحتاج إلى الزيادة، وجدَّدوا، وابتكروا فكانت الفلسفة الإسلامية.

فالرأي الصحيح الذي يُقرُّهُ كلُّ منصف، والذي يُمكنُ اعتناقُهُ هو رأيُ فلاسفة المسلمين أنفسهم، كـ«الكندي»، و«ابن سينا»؛ حيثُ يقول هؤلاء الفلاسفة المسلمون: إنَّ الحقَّ لا يمكن أَنَ يحيط به فردٌ من الأفراد بالبحث والدراسة مهما طال عُمُرُه، بل لا يمكن أن يُحيطَ به جيلٌ من الأجيال مهما جَدَّ في البحث والتحصيل. وإنَّ عُشَّاقَ الحقيقة يُتابعونَ البحثَ منذ أن وُجدت الإنسانيةُ؛ فيَصلون إلى بعض ما يبحثون من أجله، ويقول «الكندي»: «إذن يجب أن نَشكرَ الذين جاهدوا في سبيل الكشف عن الحقِّ والوصول إليه، وإنَّ كلَّ باحث يجاهدُ في الكشف عمَّا لا يزال مجهولاً».

ففلاسفة المسلمين نظروا إلى الفلسفات القديمة، فانتقدوا منها الباطلَ، واعتنقوا الحقَّ، وساهموا في تكملة صَرْحِ الحقِّ على قدر طاقتهم.

ويقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده:

«إنَّه مهما بدا من شَبَه بين آراء مُفكِّري الإسلام، وآراء غيرهم ممَّن سَبَقَهُم أو عاصَرَهم، فإنَّ آراء الإسلاميين لَها طابَعُها الخاصُّ. ويجب على الباحث أَنَ يرى ذلك؛ لأنَّه ليس في تاريخ الفكر الصحيح تقليدٌ، فلا يوجد في التاريخ فيلسوفٌ أرسطوطاليسيّ خالصٌ، ولا فيلسوفٌ أفلاطونيٌّ خالصٌ، وإنَّ الفكرة الفلسفيةَ عندما تنتقل من بيئة ثقافية إلى بيئة ثقافية أخرى، وتدخل في نظام فكريٍّ جديد تتغيَّرُ من وجوه شتَّى، وهي في هذه الحال ليست إلاَّ ملكاً لأصحابها الأوَّلين، بل ملكاً لأصحابها الجُدُدَ؛ الذين اتَّخذوا منها نقطةَ بداية لنَزَعات جديدة تُناسبُ رُوحَهم وتفكيرَهُم الفلسفيَّ».

ويقول الأستاذ دوجا:

«هل يظنُّ ويعتقدُ إنسانٌ أنَّ عقلاً كعقل «ابن سينا» و«الغزالي» لم يُنتج في الفلسفة شيئاً جديداً، وأنَّه كان مُقلِّداً لليونان فقط، وهل مذاهبُ المسلمين: الأشاعرة، والمعتزلة، وغيرهم إلاَّ ثمار بديعة أنتجها الفكرُ العربيُّ الإسلاميُّ».

رجال منصفون

لقد وَفَّق الله تعالى بعضَ الرجال المُنصفين من الغرب لرَدِّ هَجمات التعصُّب والهوى، الصادرة من بني وطنهم، وهم ليسوا من المستشرقين، ولا أتباع الاستعمار، ولكنَّهم رجالٌ غربيُّونَ مُنصفُون؛ عَرَفوا الحقَّ فاتبعوه. وهذه بعضُ شهاداتهم وأقوالهم في حقِّ الفلاسفة والعلماء المسلمين، منهم:

الأُستاذُ الفيلسوفُ الإيطاليُّ «كاردانوس»، يقول:

((إنَّ الكنديَّ هو واحدٌ من بين الاثني عشرَ الممتازين في العالم)).

ويقول الأُستاذُ «فلنت Flint» عن «ابن خلدون»:

((إنَّ «أفلاطون»، و«أرسطو»، و«أوغسطين» ليسوا نُظَرَاءَ لـ«ابن خلدون»، وكلُّ مَن عَداهُم غيرُ جديرٍ حتى أنْ يُذكرَ إلى جانبه (تجديد الفكر الديني))).

ويقول «محمد إقبال» ـ في كتابه: (تجديد الفكر الدينيِّ في الإسلام) ـ على لسان «بير يفولت»:

((إنَّ العالَمَ «بيكون» قد أخذ المنهجَ العلميَّ التجريبيَّ من المسلمين، وكان رسولاً من رُسُلِ العلم الإسلاميِّ إلى أوربا المسيحية؛ حيثُ نشر هذا المنهج التجريبيَّ في أوربا، وانكبَّ الناسُ على تحصيله، فكان العلمُ أهمَّ ما جادت به الحضارةُ العربيةُ الإسلاميةُ على العالَم الحديث، ولكنَّ ثمارَهُ كانت بطيئةَ النُّضْج؛ فليس ثمَّةَ ناحيةٌ من نواحي الازدهار الأوربيِّ إلاَّ ويمكنُ إرجاعُ أصلها إلى مؤثِّرات الثقافات الإسلامية بصورة قاطعةٍ حتمية، وخاصَّةً في العلوم الطبيعية، وروح البحث العلمي)).

ويقول «بيريفولت» أيضاً:

((إنَّ العالَمَ القديمَ لم يكن للعلم فيه وجودٌ، وإنَّ علم النجوم، والرياضيات عند اليونان، كانت علوماً أجنبيةً أخذوها من خارج بلادهم عمَّن سواهم، وإنَّ اليونان قد بحثوا، ونظَّموا، ووصفوا النَّظريات، وعَمَّموا الأحكامَ، إلاَّ أنَّ أساليب بحثهم ومَناهجهم وملاحظاتِهم كانت غريبة عن المَزاج اليونانيِّ. وإنَّ ما ندعوه علماً فقد ظَهَر في أوربا نتيجةَ

البحث العلميِّ وطُرُقه في التجربة، والملاحظة، والمقاييس، ونتيجةَ تطوُّر العلوم الرياضية إلى صورة لم يَعرفها اليونَانُ، هذه الروحُ العلميةُ، وتلك المناهجُ العلميةُ أدخلها العربُ المسلمون إلى العالَم الأوربي)).

من خلال ما ذكرناه يَتبيَّنُ لنا: أنَّ أبناء العالَم العربيِّ والإسلاميِّ في تقدُّمهم في سُلَّم الحضارة عليهم أنْ يُدركوا تماماً مكانَتَهم الممتازةَ، فيعملوا على إظهارها، ويتابعوا العملَ للوصول إلى المساهمة الفعَّالة في السَّير بالإنسانية، والحضارة العالمية نحو الرُّقيِّ والتقدُّم.

بدء الترجمة عند العرب المسلمين

لقد بدأت الترجمةُ منذ العهد الأُمويِّ، وكان أوّلَ مَن فكّر في أمر الترجمة إلى اللغة العربية هو: «خالد بن يزيد بن معاوية». يقول «الجاحظُ» في كتابه: (البيان والتبيين):

((كان «خالد بن يزيد بن معاوية» خطيباً، شاعراً، فصيحاً، جامعاً، كثيرَ الأدب، جيِّدَ الرَّأي. وكان أوّلَ مَن ترجم كُتُبَ الطِّبِّ، والنجوم، والكيمياء)).

ويقول «ابنُ النَّديم» في كتابه (الفهرست):

((إنَّ «خالد بنَ يزيدَ بن معاويةَ» كان حكيمَ آل مروان، فاضلاً في نفسه، مُحبّاً للعلوم، فصيحاً بالعربية. أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان الذين كانوا في مصرَ، وأمرهم بنقل الكتبِ من اللِّسان اليونانيِّ والقِبْطيِّ إلى اللغة العربية، ويُعتبرُ هذا أوّلَ نَقلٍ كان في الإسلام)).

الترجمة في عهد الدولة العباسية

إنَّ المسلمين الأوائلَ في العصر النبويِّ والراشديِّ، لم يُفكِّروا في أمر الترجمة؛ لأسباب ذكَرَها «ابنُ أبي أُصيبعة» فقال: ((إنَّ المسلمين في صدر الإسلام انشغلوا بالفتوحات ونَشرِ الدين، وتبليغِ الدعوة للناس، واكتفَوا بما بلَّغَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم، وأحكام الشرع، والسُّنَّة الشريفة، ولم يكونوا بحاجة إلى علوم غيرهم حتى الطِّب؛ فقد اكتَفَوا بتوجيهات النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولمعرفةِ بعضهم به، إلى أنْ جاء عهدُ الدَّولة العباسية. فكان أوّلَ مَن عُنِيَ منهم بالعلوم الخليفةُ الثاني «أبو جعفر المنصور»؛ فكان ـ مع براعته في الفقه ـ مُحِبّاً للفلسفة والعلوم.

وفي عهد الخليفة «المأمون» أتَمَّ ما بدأ به جدُّهُ «المنصور»، فأقبل على طَلَب العلم بهمّة، وقُوَّة نفسٍ هائلة؛ فاتَّصل بالروم، وسألهم ما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه كُتُبَ «أفلاطون»، و«أرسطو»، و«أبقراط»، و«جالينوس» وغيرهم. فطلبَ كبارَ المُترجمين، وكلَّفَهم بنَقلها، فتُرجِمَت إلى اللغة العربية، وحَضَّ الناسَ على قراءتها وتَعلُّمها، حتى ازدهرت العلومُ في عصره،

وتنافسَ الناسُ فيها. وكان «المأمون» يُشاركُ ويَأنسُ بمُناظَرَتهم ومُذاكَرَتهم. وهكذا كانت سيرتُهُ مع سائر الفقهاء، والعلماء، والمحدِّثين، والمتكلِّمين، وأهل اللغة والأخبار، فأتقن جماعةٌ من أهل العلم والمعرفة كثيراً من أجزاء الفلسفة؛ فسَنُّوا لمَن بعدَهُم مناهجَ الطلب، وأُصولَ الأدب، حتى كادت الدولةُ العباسيةُ تُضاهي الدولةَ الرومانيةَ أيامَ مَجدها وقوَّتها. وكان أوّلَ علْم اعتُنيَ به هو علمُ المنطق، وخاصّةً ما تَرجَمَهُ «عبدُ الله بنُ المقفَّع» عن كُتُب «أرسطو» المنطقية، بعبارةٍ سَهلة قريبة المأخَذ، كما تَرجَم كتابَ الهنديِّ المعروف (كليلة ودمنة) من الفارسية إلى العربية.

ثُمَّ تُرجمَت علومُ النجوم، وقد شَجَّعَ «المأمونُ» على ذلك؛ حيثُ أمر بترجمة الكتب الخاصَّة بالإلهيات، والأخلاق، والنفس.

والأسبابُ التي دفعت «المأمون» إلى اهتمامه بالتَّرجمة والنقل، هي: مَيلُهُ للاعتزال، ونَشأتُهُ الثقافيةُ (قضية خَلْق القرآن)، وترجمةُ الكتب اليونانية الخاصَّة بالإلهيات، والأخلاق.

الخطأ في الترجمة

لقد ذكر «أبو حيان التوحيديُّ» المتوفى: 410 هـ في كتابه (المُقابَسات): ((أنَّ الترجمةَ من اللغة اليونانية إلى العبرانية، إلى السّريانية، إلى العربية، قد أخلَّت بالمعاني إخلالاً واضحاً لا يَخفَى على أحد)).

وقد سَجَّل «الغزاليُّ» هذا التحريفَ في كتابه (تهافت الفلاسفة)، فقال:

((إنَّ ترجمة فلسفة «أرسطو» كانت بحاجة إلى تفسير وتأويل، حتى قام فلاسفةُ العرب المسلمين بشرحها وتبسيطها، كما فعل «الفارابيُّ» في شرح كتاب (ما بعد الطبيعة) لـ: «أرسطو»، بكتاب (أغراض ما بعد الطبيعة)).

والواقع أنَّ الترجمةَ الحقيقيةَ تحتاج إلى ثلاثة أمور:

1 ـ إتقان اللغة المترجم عنها.

2 ـ إتقان اللغة المترجم إليها.

3 ـ المعرفة بالمادة المترجمة.

ولكنَّ كثيراً من المترجمين لم تكن تتوفَّر فيهم هذه الشروطُ بأكملها، لذلك كان الخلفاء يأمرون بإصلاح بعض التَّراجم وتصحيحها، أو إعادة ترجمتها من جديد، كما فعل «الكندي» في كتاب (الربوبية) المَنسوب إلى «أرسطو»؛ فقد أصلح ترجمتَهُ.

وإنَّ الخطأ الذي كان يقع فيه المترجمون خطأٌ في المعنى، وخطأٌ في نسبة بعضِ الكتب إلى غير مؤلِّفيها.

والذي وقع في هذا الخطأ هم المترجمون السريان قبل العرب؛ فكان لهذا الخطأ آثارٌ خطيرةٌ. فكتاب (الربوبية) - مثلاً - المنسوبُ خطأً لـ: «أرسطو»، اطَّلع عليه «الفارابي» مُعتقداً أنَّه لـ: «أرسطو»، فقام في نظريته المشهورة بالتوفيق بين الحكيمَين «أفلاطون»، و«أرسطو»: (بين الدين والفلسفة)، ولَمّا عَرَفَ أنَّ الكتابَ ليس لـ: «أرسطو»، انهارت نظريتُهُ في التوفيق؛ لأنَّ الكتاب كان لـ: «أفلاطون»، وهو بعيدٌ كلَّ البُعد عن روح «أرسطو».

عصر الترجمة العربي للفلسفة اليونانية

الفكر السرياني:

عندما استولت جيوش «الإسكندر» المَقدُونيّ على سوريا قبل احتلاله مصرَ، جعلوا مدينةَ (الرُّها) شمال سوريا، أكبرَ وأقوى مركز للفلسفة المشائية في الشرق. وقد قام السريان بنقل الفلسفة اليونانية إلى الشرق. ونجد أثرَ ذلك في كتبهم؛ إذ كانوا يُجيدون اللُّغةَ اليونانيةَ والسّريانيةَ. وإنَّ أقدم التَّرجمات التي وصلت إلينا كتابٌ يونانيٌّ نُقلَ إلى السُّريانية، نقلَهُ «يوسف الأهوازي» المتوفى عام 580 م، وقد هاجر عددٌ كبيرٌ من فلاسفة اليونان إلى الشرق إثرَ فتوحات «الإسكندر»، فنقل السريانُ عنهم فلسفَتَهم إلى السريانية.

وبعدَ وفاة «الإسكندر» أُقيمت مدارسُ متعددةٌ، منها: (مدرسة الإسكندرية)، و(أنطاكية)، ومنها نَقلَ السريانُ ثقافةَ اليونان إلى مدارس: (الرُّها) و(نَصيبين) و(حَرَّان) و(جنديسابور) و(بغداد).

مدرسة الإسكندرية:

بعد موت «الإسكندر» أخذ اليونانيون يَضطَهدون كلَّ مَن له علاقةٌ بالمقدونيين، فاضطرَّ فلاسفةُ مدرسة «أرسطو» في (أثينا) إلى الخروج من (أثينا) إلى (الإسكندرية) في (مصر)، وأنشأوا مدرسةً أمَّنَتْ استمرارَ التقليد المشائيِّ، إلى أنْ فتحَ العربُ المسلمون مصرَ، فكانت (مدرسةُ الإسكندرية) المدرسةَ الوحيدةَ التي قامت بنَقل العلوم إلى العرب، ثم نَصَرتْ المسيحيةُ الفلسفةَ اليونانيةَ، وخاصّةً على يد «أوريجانوس». وقد ظهر ذلك في مؤلَّفاته، ثمَّ اضطرَّ إلى مُغادرة

(الإسكندرية)، ولجأ إلى (فلسطين)، وأنشأ فيها مدرسةً تَهافَتَ عليها طلابُ العلم من جميع أنحاء الشرق، وتخرَّج فيها أشهرُ مفكِّري العصر، وكان لهم الأثرُ في توجيه المدارس السورية.

مدرستا الرُّها ونَصيبين:

أُنشئت (مدرسةُ انطاكيةَ) عام 270م، وكانت تُعلِّمُ الخطابةَ والفلسفةَ الأفلاطونيةَ، ثمَّ أُنشئت مدرَسةُ نصيبين. وأسَّس الفُرْسُ (مدرسة الرُّها) الشهيرةَ؛ التي كانت مركزاً للثقافة الهيْلينيَّة السُّريانية في آسيا؛ حيثُ كان تعليمُ اللُّغة اليونانية فيها إجبارياً إلى جانب اللغة السُّريانية. وأُدخلت (الفلسفةُ المشائيةُ) لـ: «أرسطو» في المناهج، وعندما فتح العربُ المسلمون بلادَ الشام والرَّافدَين ومصرَ. أصبحت (الإسكندرية) مركزاً مُهمّاً للأبحاث العلمية والفلسفية؛ حيث ازدهرت العلومُ في كلٍّ من: (سوريا)، و(فارس)، و(مصر).

مدرسة جند يسابور:

قبل الفتح الإسلاميِّ أنشأ «كسرى أنُوشَرْوان» مدرسةً في (جنديسابور) في (خُوزستان)، جَمَعَ فيها الكتبَ السُّريانيةَ، واليونانيةَ، والهنديةَ. وازدهرت فيها كلُّ العلوم، وخاصَّة: العلومُ الطبيعيةُ. ونُقلت أهمُّ مُؤلَّفاتها فيما بعدُ إلى العربيَّة.

وعندما نشأتَ مدرسةُ الطِّبِّ في أوَّل العصر العبَّاسيِّ، استفادت من تَجارب (مدرسة جند يسابور). وقد كان «كسرى» واسعَ الصَّدر، حُرَّ التفكير؛ بحيث شَجَّعَ على نَشر الثقافةَ والحضارة اليونانيةِ بكل مظاهرها، وقد تسرَّبتْ هذه الحضارةُ من قبلُ مع فتوحاتِ «الإسكندر» إلى بلاد فارس.

انتقال مدرسة الإسكندرية إلى بغداد:

لقد انتقل التعليمُ من (الإسكندرية) إلى (أنطاكية)، ثم إلى (حَرَّان). ومن (حَرَّان) انتقل الأساتذةُ إلى (بغدادَ) في خلافة «المُعتَضد».

ومن أشهر الأساتذة الذين انتقلوا إلى (بغداد): «ثابتُ بنُ قُرَّة»، و«قسطا بن لُوْقا»؛ المُترجمان الشهيران.

ومن الأساتذة الذين علَّموا في (بغدادَ) وشَرَحوا كُتُبَ «أرسطو» وغيرَها: «يوحيا بن حيلان» أُستاذُ «الفارابيِّ»، و«يحيى المَرْوَزيّ». وقد كانت الحركةُ العلميةُ في (بغداد) قويةً؛ حيث بلغت من العُمْق والنُّضْج ما مَكَّنَ «الكنديَّ» و«الفارابيَّ» من النُّبوغ.

التَّرجماتُ السريانيَّة:

لقد انتقلت الفلسفةُ اليونانيةُ إلى السريان، فشعر أساتذةُ السريان بضرورة نقل الكتب اليونانية إلى لغتهم. وقد بدأ النشاط الفلسفيُّ عند السُّريانُ بالتَّرجمات، وانتهى إلى الشُّروحِ والتفاسيرِ والتعاليق. ويُمكنُ حصرُ تاريخ الترجمات السريانية في ثلاثَ مراحلَ:

1ـ المرحلة الأولى: بدأت في مدينة (الرُّها) في منتصف القرن الخامس الميلاديِّ، ثم انتقلت إلى (فارسَ) بعدَ أن أغلق «زينون» (مدرسةَ الرُّها):

وقد تُرجمت في هذه المرحلة كتبُ المنطق لـ: «أرسطو»، مثل: كتاب (العبارة)، و(المقالات).

2ـ المرحلة الثانية: امتدت من القرن السادس الميلاديِّ إلى ما بعدَ الفتح الإسلاميِّ:

وتمتاز بغزارة الإنتاج العلميِّ والفلسفيِّ، وأشهرُ مَن بَرزَ فيها: «سرجيس الرأسُ عَيْنيّ»، كان رئيسَ أطباء (رأس العين) في شمال الجزيرة، وكان فيلسوفاً، وعالماً، وأديباً، ومُؤرِّخاً، ولغوياً، وكاهناً. وقد دَرسَ الطِّبَّ والفلسفةَ في (الإسكندرية)، وترك عدَداً من المؤلَّفات.

3ـ المرحلة الثالثة: عندما جاء الفتحُ الإسلاميُّ، نَسيَ السريانُ خلافاتهم اللاَّهوتيَّة؛ ليَقفُوا صَفّاً واحداً في وجه الدِّين الجديد. وقد غيَّرت الحالُ السياسيةُ والاجتماعيةُ اتجاهَهُمُ الفكريَّ؛ إذ أصبحت اللغةُ العربيةُ هي اللغةَ السائدةَ، وتَقلَّصت اللغةُ السُّريانيةُ، بحيث بقيت لغةَ الطُّقُوس الدينية في الأدْيِرَة.

وقد قام السُّريانُ بترجمة التراث اليونانيِّ إلى العالَم العربيِّ. والواقعُ أنَّ اتصال العرب بالسُّريان يعود إلى عهد بعيد؛ إذ كان السريان يتعاطَونَ الطِّبَّ في الجزيرة قبل الإسلام، وكانت الممالكُ في القسم الشماليِّ مِن الجزيرة تَغُصُّ بالسُّريان: الذين تخرَّجوا من (مدرسة جنديسابور)، وقَويت هذه العلاقاتُ بعد الفتح العربيِّ الإسلاميِّ؛ إذ اهتمَّ العرب المسلمون بالحضارة المنتشرة في (سوريا) إبَّانَ الفتح. ولئن أهملَ الأُمويُّونَ الحركةَ العلميةَ بعضَ الإهمال؛ فلأنَّهم كانوا منشغلين بالحروب والفتوحات، وتنظيم شؤون الدولة.

أمَّا العباسيُّون فقد استتبَّ لهم الأمرُ؛ فتمكَّنوا من تشجيع الآداب، والعلوم، والفلسفة.

وبعد أن أسَّسَ «أبو جعفر المنصورُ» مدينةَ (بغداد) عام: 148 هـ ـ 765م أنشأ فيها مدرسةً للطِّبِّ، واستَقدمَ إليها الطبيبَ «جرجيس» من (جنديسابور)، وأوكلَ إليه إدارةَ المدرسة، كما لجأ السريانُ إلى كتبه؛ لنقل الآثار اليونانية إلى العربية.

حركة النقل بعد الفتح العربي الإسلامي:

فتح العرب المسلمون (سوريا)، ودخلوا (العراقَ) عام 638 م، وبعد أربع سنوات أصبحت (فارسُ) تحت سيطرتهم.

وفي عام 661م استقرَّت الدولةُ الأمويةُ في (دمشق)، وبقيَ النصارى يتمتَّعون بالحرية الدينية والفكرية. أمَّا في العصر العباسيِّ فقد نَشَطَت الحركةُ العلميةُ، والترجمةُ إلى العربية، ومع ذلك بقيَ بعضُ السريانُ يُؤلِّفون بالسريانية، إلاَّ أنَّ السريان لم يُخلِّفوا مؤلفات لها أثرُها في تاريخ تطورِ الفكرِ البشريِّ. لكنَّهم كانوا الواسطةَ التي انتقلت بها الفلسفةُ والعلومُ اليونانيةُ إلى العالَم العربيِّ، وأهمُّ نشاطاتهم كانت في الطِّبِّ والمنطق.

عصر الترجمات:

بعد سقوط الدولة الأموية، كانت الترجماتُ العربيةُ قد شَمَلَتْ القسمَ الأكبرَ من مؤلَّفات «أرسطو»، وكتب «جالينوس»، ومحاورات «أفلاطون»، وكلِّ كتب المعرفة آنذاك.

وقد بدأت الترجماتُ إلى العربية آخرَ القرن السابع الميلاديِّ، ونَشَطَتْ في أواخر القرن الثامن، وبلغت ذروتَها في القرن التاسع الميلادي.

أمَّا الحركة الحقيقيةُ للنقل فلم تبدأ إلاَّ في عهد «أبي جعفرٍ المنصور»؛ الذي أسَّس (بغدادَ)، وجعل منها وَريثةً لـ(أثينا) و(الإسكندرية).

وقد تابع الخلفاءُ عملَ «المنصور»، حتى جاء «المأمونُ» وأنشأ مدرسةً للترجمة؛ عُرِفت باسم: [بيت الحكمة]، وأوفدَ المرسلين إلى (الهند) و(فارسَ) للبحث عن الكتب القيِّمة.

وكان «حنين بن إسحاق» - وهو لم يبلغ الثامنةَ عشرةَ من عُمُره - من أنشط المُترجمين في هذه المدرسة، ثم أصبح رئيسَ المدرسة في عهد الخليفة «المتوكِّل»؛ حيث زادت حركةُ الترجمة في عهده، وكان «حنين بنُ إسحاق» يُجيدُ اليُونانيةَ، والعربيةَ، والفارسيةَ، والسريانية.

أمَّا ابنه «إسحاق»؛ فقد نشأ في بيئة عربية، فكانت اللغةُ العربيةُ لغتَهُ الأصليةَ، فأعاد النظرَ في ترجمات أبيه وغيرها. وإليه يعود الفضلُ في تعريف العرب بالفلسفة اليونانية؛ إذ صَحَّح ونقلَ أكثرَ من نصف مؤلَّفات «أرسطو»، حتى إنَّ «ابنَ رشد» كان يعتمدُ في شروحه على تَرجمات «ابن إسحاق»، وعلى ترجمات «ابن إسحاقَ» كانت تُقابَلُ التَّرجماتُ الأخرى، حتى عُرِفت ترجماتُ «ابن إسحاق» بـ: [الدستور]؛ لكونها أوثقَ المراجع وأدَقَّها.

ومن المُترجمين أيضاً: «الحجاج بن مطير»، و«يوحنا بن البطريق»، و«عبد الملك بن ناعمةَ» الحمصيُّ، و«قسطا بن لوقا» البعلبكيُّ.

وقد بقيت حركةُ النقل والترجمة ناشطةً حتى القرن العاشر الميلاديِّ (الرابع الهجري).

ثم جاء «يحيى بنُ عَديٍّ» التَّكريتيُّ؛ الذي سُمِّيَ بـ: المَنطقيِّ، وقد أخذ عنه «الفارابيُّ».

ونَبغَ أيضاً: «أبو علي إسحاقُ بنُ زرعةَ»، و«ثابتُ بنُ قرّةَ» الصابئيُّ الحَرَّانيُّ.

ما نقل إلى العربية:

إنَّ أوّلَ ما نُقل إلى العربية الكتبُ العلميةُ، كـ: الطِّبِّ، والهندسة، والكيمياء، والحساب. بالإضافة إلى العلوم الأخرى الطبيعية، وعلوم الدين، وما بعد الطبيعة.

فقد نُقلَ إلى العربية: (التوراةُ) و(الإنجيلُ).

ونُقل عن الفارسية والهندية: كتبُ الفَلَك، والحساب، والهندسة.

ونقل عن اليونانيةَ: الهندسةُ، والفَلَكُ، وَالطِّبُّ، والفلسفةُ.

ولقد أطلق العربُ على «أرسطو» اسمَ: «المعلِّم الأوَّل»؛ فنقلوا أكثرَ من مرّة جميعَ مؤلَّفاته. فحَلَّت مؤلَّفاتُهُ وكتبُهُ المَحلَّ الأولَ عند العرب، ولكنَّ مذهبه وصل إليهم مُشوَّهاً عن طريقَ (المدرسة الإسكندرية).

الكتب المنحولة:

لقد نَسبَ العرب إلى «أرسطو» مؤلَّفات لا تتّفقُ مع فلسفته ومذهبه؛ إذ إنَّ أكثرها ممزوجٌ بمذهب «فيثاغورس» و«أفلاطون» مثل: كتاب (الربوبية): الذي ترك أثراً في الفلسفة الإسلامية أعمقَ من فلسفة «أرسطو» ذاتها. وقد ظهر هذا الأثرُ واضحاً في مؤلَّفات «الفارابيِّ»، و«ابن سينا»، و«ابن رشد». وكان لهذا الكتاب أيضاً أثرُهُ في نواحي الفكر الإسلاميِّ، من الناحية الصُّوفيّة خاصّةً. ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ السريان هم أوّلُ مَن نَسبَ هذه الكُتبَ إلى «أرسطو»؛ لأنَّ الترجمة العربيةَ لكتاب (الربوبية)، كان قد نقل عن السريانية وليس له أصلٌ يونانيٌّ.

قيمة الترجمات العربية:

إنَّ الترجمات العربيةَ تمتاز بحرص المُترجمين، والنَّقَلَة على الأمانة والدِّقَّة؛ لأنَّ المترجمين والنَّقلةَ كانوا فلاسفةً؛ يفهمون النَّصَّ قَبل نقله، ويشرحون الغامضَ منه بَعد أن

يُقدِّموا له. لذلك لَمَّا جاء المسلمون، ولجأوا إلى هذه الترجمات، لم يجدوا فيها نصوصاً غامضةً جافّةً؛ ممَّا مَهَّد السبيل لكبار الفلاسفة، كـ: «الكنديِّ»، و«الفارابيِّ» و«الرازي»، لمعرفة هذه الترجمات، مع أنَّ الكتابَ الواحدَ كان قد تُرجم عدةَ مرّات عن مصادرَ مختلفة، وقُوبِلَ بين الترجماتِ، وصُحِّح بعضُها على بعض، وعلَى الأصل اليونانيِّ.

ويذكر المؤرخون: أنَّ (88) ترجمةً مختلفةً، قام بها (23) ناقلاً لعشرين كتاباً من كتب «أرسطو». ومعنى ذلك: أنَّ الكتاب الواحدَ كان له أكثرُ من أربعةِ نقولٍ مختلفةٍ.

أثر الترجمات

لقد أحدثت الترجماتُ في العالَم العربيِّ انقلاباً فكريّاً، ولُغويّاً، وثقافياً، مُنقطعَ النظير في تاريخ الحضارة الإنسانية، يَفوقُ الانقلابَ الذي أحدثته النهضةُ في أوربا في القرن الخامسَ عشرَ الميلاديِّ؛ إذ إنَّ العرب في صدر الإسلام، وفي عهد الدولة الأموية، كانوا يَعتنون بالعلوم القرآنية، والفقه، والكلام، والحديث، واللغة. أمَّا العلوم الأخرى، كـ: الطِّبِّ، والهندسة، والرياضيات، والطبيعيات، والكيمياء، والموسيقى، والفلسفة، التي سَمَّوها جميعاً: (العلومَ الدَّخيلةَ)، أو: (عُلومَ الأوائلِ)، لم يَكن لها نصيبٌ وافرٌ عندهم؛ حتى إنَّ أكثرَها كان مجهولاً لديهم.

وقد نقل هذه العلومَ كلَّها إلى العربية السريانُ، ونشروها في العالم الإسلاميِّ، وكان لهذه العلوم الدَّخيلة أثرٌ عميقٌ في الفكر الإسلاميِّ، وخاصَّةً في الحقل الدينيِّ، وفي مجالات الأدب، والشعر في العصر الأمويِّ والعباسيِّ.

وقد تأثَّرت علومُ: النحو، واللغة، والعَرُوض، بالمنطق والفلسفة؛ حتى إنَّ نُحاةَ البصرة سُمُّوا بأهل المنطق؛ لاستعمالهم المصطلحاتِ المنطقيةَ في علم النَّحْوِ، وقد أدخل «الجاحظُ» أشكالَ القياس في أساليب البلاغة.

ومما ساعد العربَ على ذلك، مُرونةُ اللغة العربية في التصريف والاشتقاق. فدخل إلى اللغة العربية كثيرٌ من المفردات والكلمات اليونانية، مثل:

(أرخَبيل - إسطرلاب - أنبيق - فلسفَة - ترياقَ - إسفنج - إسفين - فانوس - فندق - فخ - طاووس - بستان - بطاقة . . . إلخ).

ودخل أيضاً كثيرٌ من الكلمات الفارسية إلى اللغة العربية، مثل:

(إبريق - كوز - قصعة - فيروز - بلور - فلفل - كعك - قرفة - نرجس - بنفسج - سوسن - جلّنار - قرنفل - صندل - كافور - عنبر - مسك - طبق . . . إلخ).

وكلُّها أصبحت كلمات عربيةً، فكان تأثيرُ الترجمات على النواحي المختلفة للفكر العربيِّ واضحاً؛ فنَبغَ كثيرٌ من العلماء والأطباء والفلاسفة بسبب الخَدمات التي قدَّمها المُترجمون والنَّقَلَةُ إلى الثقافة الإسلامية، فشَقُّوا الطريقَ لمن جاء بعَدهم وعَبَّدوها، وأَمَّنوا الاتصالَ بين العالَمِ الهلينستيِّ والعالَم العربيِّ في القرون الوسطى.

1 ـ بواعث النقل:

كانت البواعثُ على نقل الفلسفات إلى اللغة العربية جَمّةً:

آ ـ احتكاك العرب بغيرهم من الأمم:

لَمّا احتكَّ العربُ بغيرهم من الأمم، أدركوا أنَّ عند تلك الأمم ثقافاتٍ يَحسُنُ الاستفادةُ منها.

ب ـ حاجتهم إلى علوم ليست عندهم:

جاء الإسلام بفروض كثيرة، من: الصيام، والصلاة، والحج، ممَّا يحتاج إلى حُسبان وتقويم، فاحتاج المسلمون إلى علومٍ تُسهِّلُ عليهم هذا الحُسبانَ، فنقلوا إلى العربية كُتُبَ الرياضيات، والفَلَك خاصّةً. وكذلك احتاجوا في أوّل أمرهم إلى الطِّبِّ؛ لأنَّ الطِّبَّ العربيَّ كان مَبنياً على الاختبار وحدَهُ، لا على العلم والاختبار معاً. وكان يصيب أحياناً، إلاَّ أنَّ المعالجة لم تكن دائماً ذاتَ نتائجَ سريعة.

جـ ـ القرآن الكريم وحثه على التفكير:

والقرآن الكريمُ مملوءٌ بالآيات التي تَحُثُّ على التفكير في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وفي تركيب جسم الإنسان.

فإذا أضفنا ذلك إلى رغبة الإنسان الطبيعية في البحث عن المجهولات، أدركنا أنَّ حَثَّ القرآن الكريم للمسلمين على التفكير في العالَم الذي حولنا كان باعثاً قوياً على طلب العلم.

إنَّ القرآن الكريم يَحُثُّ المسلمين على التفكير في السموات والأرض، وفي أنفسهم، وفي كلِّ ما حولَهم، فمن ذلك: قولُهُ تعالى في سورة [آل عمران: 189 ـ 191]:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

ثمَّ هنالك آياتٌ تدعو إلى التفكير والتَّفقُّه، وتَحُضُّ على العلم تَعْيًا عن الحصر.

ولقد عَرضَ «ابنُ رشد» لهذه الناحيةِ في مطلع رسالَتَيه: (فصل المقال) و(الكشف عن مناهج الأدلة) بالتفصيل.

د ـ العلم من توابع استثمار المدنية:

حينما تزدهر البلادُ سياسياً واقتصادياً، ويَكثُرُ فيها التَّرَفُ، ويَستبحرُ العُمرانُ، تتَّجهُ النفوسُ أيضاً إلى البحث في العلم، وإلى التفكير ضرورةً، ولم يَشذَّ العربُ عن ذلك.

إنَّ الإسلام إذن، واتساعَ الإمبراطورية، وحاجةَ العرب إلى ما عند الأمم من العلوم، كانت من أقوى البواعثِ على طلب الفلسفة، ونقلِ كتبِ العلم إلى اللغة العربية.

2 ـ بدء النقل:

تُجمعُ المصادرُ والمراجعُ على أنَّ اهتمام العرب بالعلوم اليونانية خاصّةً، بدأ منذ العصر الأُمويِّ، وهم يذكرون أنَّ «خالد بنَ يزيد بن معاويةَ» المتوفى سنةَ 85 هـ ـ 704م لَمَّا يَئِسَ من الفوز بالخلافة، بعد انتقال الخلافة من الفرعِ السُّفيانيِّ إلى الفرع المروانيِّ، انقلب إلى العلم، ودَرسَ معه الكيمياءَ خاصّةً، على يد رَاهبٍ إسكندرانيٍّ اسمُهُ «مريانوس»، ثمَّ أمر بنقل كتب الصَّنعة (الكيمياء) إلى العربية. وكذلك بَدأَ نقل الطِّبِّ في العصر الأُمويِّ أيضاً، ولكن لم يصل إليه شيءٌ مكتوبٌ من العصر الأُمويِّ.

أمَّا النقول غيرُ العلمية من غير العربية إلى العربية؛ فكانت كثيرةً منذ العصر الجاهليِّ. إنَّ وفادات العرب، وسَفاراتهم إلى بلاط فَارسَ في الأكثر، وإلى بلاط القُسطَنطينية في الأقلِّ، كـ: رحلة «امرئ القيس» إلى القُسطنطينيَّة ـ مثلاً ـ، كانت تقتضي أن يكون ثمّةَ نقلةٌ بين العرب وبين فارس والروم من العربية إلى الفارسية واليونانية، ومنهما إلى العربية. وكذلك يبدو أنه كانت ثمّةَ منذُ الجاهلية نقولٌ تامّةٌ أو جزئيةٌ من (التوراة) و(الإنجيل) الموجودَين بأيدي الناس. ففي الأدب العربيِّ دلالاتٌ على أنَّ مثلَ هذه النُّقول كانت موجودةً ومعروفةً، ولكنَّ هذه كلَّها بعيدةٌ عمَّا نحن بسبيله.

ومن أبرز ميْزات الدَّور الأوَّل للنقل، الذي انتهى في خلافة «أبي جعفر المنصور» (ت 158هـ = 775م): أنَّ الأفراد كانوا يقومون بالنقل رغبةً منهم في ذلك، كما فعل «عبدُ الله بنُ المُقفَّع» المشهورُ (ت 142هـ = 749م)؛ حينما نقلَ بعضَ كتب السُّلوك من الفارسية إلى العربية.

ويُنسبُ إلى: «عبد الله بن المُقفَّع» هذا نقلُ بعض كتب «أرسطو» في المنطق، ثمَّ كتابُ «أياغوجي» لـ: «غرفوريوس»، وشيءٌ من الطِّبِّ، من اللغة الفارسية إلى العربية. ولكن لعلَّ هناك رجلاً آخرَ اسمُهُ «عبدُ الله بنُ المقفَّع» غير صاحبُ كتاب (كليلةَ ودمْنة).

ومنذ أيَّام «أبي جعفر المنصور» أصبح النقلُ في رعاية الدولة، وعلى ذلك سار «هارونُ الرشيدُ»، و«المأمونُ»، فاتسعت حركةُ النقل من اليونانية إلى العربية، اتساعَ النقل إلى العربية.

كانت الفلسفة ظاهرةً في اليونان والرُّوم (البيزنطيِّين) من قَبل شريعة المسيح عليه السلام، فلمَّا انتصرت الرُّوم، مَنعوا منها، ومُنعَ الناسُ من التَّكلُّم في شيء من الفلسفة؛ إذ كانت ضدَّ الشرائع النبوية، ثمَّ إنَّ الرومَ ارتدَّت عائدةً إلى مذهب الفلاسفة، ثم عادت النصرانيةُ إلى ما لَها؛ فعاد المنعُ عن كتب الفلاسفة، وخُزِنَتْ تلك الكتبُ في أقبيةٍ مُوْصَدةٍ حتى لا تَصلَ إليها الأيدي.

ومنذ أيام «المنصور» أخذ المسلمون يَتتَّبعونَ كُتبَ العلم والفلسفة في اللغة اليونانية؛ لينقلُوهَا إلى العربية، وكانوا يبذلون في ذلك الأموالَ، وكان بعضُ أثرياء المَسلمين يذهبون إلى بلاد الروم، ويصطحبون معهم أفراداً يُحسنون اللغةَ اليونانيةَ؛ لَيشتَرُوا لهم الكتبَ الفلسفيةَ، كـ: «بني المنجم» ـ مثلاً ـ على ما سيأتي في مكانه.

ولَمَّا جاء «المأمونُ»، واتسعت دائرةُ النقل كثيراً، أنشأ [دارَ الحكمة] في (بغداد)، ووقف عليها الأموالَ للذين يريدون أن ينقطعوا إلى نقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية.

أمَّا سبب اتساع تلك الحركة في عهد «المأمون» فهو:

أنَّ «المأمون» لَمَّا انتصر على الروم (215هـ = 830م)، وعَلمَ بكتب الفلسفة المخزونة عندهم، انتهزَ الفُرصةَ، وأحبَّ أن يأخذ في شروط الصُّلح مكانَ المَال كُتُباً.

وقد ظنَّ «توفيل» (ثيوفيلوس) مَلكُ الرُّوم ذلك كَسْباً. أمَّا «المأمونُ» فعدَّه نعمةً عظيمةً. على أنَّ مؤرخي العرب يَروون في طلب «المأمون» لكتب الفلسفة اليونانية قصَّةً هي:

«أنَّ الخليفة «المأمون» رأى في المنام «أرسطو طاليس»، وكلَّمه في أمور، وأُعجبَ به، فلمَّا استيقظ تَعلَّقت همَّتُهُ بنقل الكتب اليونانية، فكتب إلى ملك الروم يَطلُبُ منه كُتُباً لفلاسفة اليونان. وكانَ ملوكُ اليونان، لَمَّا انتصرت النصرانيةُ في بلادها، قد جمعوا كُتُبَ

الحكمة التي في أيدي الناس، وجعلوها في هيكل قديم، وأغلقوا بابَهُ؛ ففتحَ مَلكُ الروم الهيكلَ، وأرسل خمسةَ أحمال من كُتُب الحكمة إلى «المأمون»، بعد أنْ كان طول الزَّمن قد أفسد كثيراً من هذه الكتب بالرُّطوبة والعَثّ». فنَقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية لم يَجرِ اتفاقاً، ولا اعتباطاً تجاهَ النقل.

ومما يَدُلُّ على تَفهُّم العرب للحركة العظيمة التي كانوا يَقومون بها:

أنَّهم بدأوا أوّلَ ما بدأوا بكتب العلم العملية، لا بكتب الفلسفة النظرية. لقد كان العربُ في أوّل أمرهم بحاجة إلى كتب الرياضيات، والفَلَك؛ لتعيين مواقيت الصَّوم، والصلاة، والحجِّ. وإلى كتب الطِّبِّ؛ لصَلاح أبدانهم؛ فبدأوا بنقل هذا النوع من الكتب أولاً، ولَمَّا كَثُرَت لديهم كتبُ العلوم، اتَّجهوا صَوبَ كتب الفلسفة النظرية ليُتَمِّموا أداءَ رسالتهم الثقافية.

طبقات النَّقَلَة:

فيما يلي إجمالٌ لطبقات النَّقَلَة:

1 ـ كان هناك أفرادٌ منذ العصر الأُمويِّ نقلوا الكتبَ ابتداءً من عند أنفسهم، أو بطلب من غيرهم: من هؤلاء: «مارينوس» القديمُ، وهو «مارينوس الإسكندرانيُّ»، ثم «عبدُ اللهِ ابنُ المقفَّع».

2 ـ آل ماسرجويه: أوَّلُهم «ماسرجويه» الطبيبُ، وكان يهوديَّ الدين، سريانيَّ اللغة، بَصْريَّ الدار. ويُقال: إنَّه بدأ بالنقل منذ أيام الدولة الأموية قبل خلافة «عمر بن عبد العزيز» (99 ـ 101هـ). وعُمِّر «ماسرجويه» حتى أدرك «أبا نواس».

وقد نقل «ماسرجويه» كتابَ القسِّ «أهرن بن أعين» الإسكندرانيِّ، ولـ: «ماسرجويه» أيضاً كتابٌ مجموعٌ في: (الغذاء)، وكتابٌ في: (العين).

3 ـ آل يختشوع: وهم نصارى نَساطِرَه، كانت لُغتُهُم السريانيةُ، وقد اشتهر منهم في صناعة الطِّبِّ ستَّةُ أجيال، فمنهم:

آ ـ «جورجيس بن يختشوع»:

كان طبيباً ماهراً، وكان رئيساً للأطباء في (مارستان جند يسابور)، استقدَمَهُ «المنصور» سنةَ 148هـ = 765م إلى (بغداد) ليُداوِيَه، ثم جعلَه طبيبَهُ الخاصَّ، وكان «جورجيس» ناقلاً

من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية. ويُقال: إنَّ له كُنَّاشا مشهوراً (مجموعاً في الطِّبِّ)، نَقَلَهُ «حنين بن إسحاق» إلى العربية.

ب ـ ابنه «يختشوع بن جورجيس»:

لَمَّا ترك «جورجيس» (جنديسابور)، خَلَفَه ابنُهُ «يختشوع» هنالك على (المارستان)، فلمَّا مَرِضَ «الهادي» سنةَ 170 هـ استُدعِيَ «يختشوع» إلى (بغداد)، ولكنَّه عاد بعد موت «الهاديَ» إلى (جنديسابور).

ثمَّ لَمَّا مرض «الرشيد» أتى به مرَّةً ثانيةً، وقد نال «يختشوع» عند «الرشيد» حَظْوةً؛ فجعله «الرشيد» رئيسَ الأطبَّاء. وتوفِّي «يختشوع» سنةَ 213 هـ = 828م.

وهنالك عددٌ من النَّقَلَة أكثرُ شُهرةً من أصحاب تلك الطبقات، كـ: «آل حنين»، و«آل ثابت بن قُرَّة»، و«آل موسى المُنجِّم».

طُرُقُ النَّقل:

للنقل طريقتان:

آ ـ الطريقة اللفظية. ب ـ الطريقة المعنوية.

آ ـ الطريقة اللفظية:

وهي طريقة «يوحنا بن البطريق» و«عبد المسيح بن الناعمي» الحمصيِّ، وذلك:

((أن يأتيَ الناقلُ إلى النصِّ، وينظر في كلِّ كلمةٍ بمُفرَدِها، ثم يضعُ تحتَها مُرادِفَها، حتى ينتهيَ من جملة مَا يَوَدُّ نَقلَه)).

هذه الطَّريقة رديئةٌ؛ لوجهين:

أحدهما: أنَّ كثيراً من الكلمات في كلِّ لغة لا مُرادفَ لها في سائر اللغات، ثم إنَّ لكلِّ لغة تركيباً إسنادياً (تركيباً للجُمَل)، يُخالفُ سائرَ اللغات. من هذه الطريقة تَسرَّبت أكثرُ الأخطاء التي ضَلَّلت العربَ، وشَغَلتهُم زمناً طويلاً، ثمَّ تنبَّهوا لها بعد حين، وهكذا احتاج عددٌ من الكتب التي نُقِلت على هذه الطريقة إلى أن تُصلَّح فيما بعدُ.

ب ـ الطريقة المعنوية:

طريقة «حنين بن إسحاق»، وذلك: ((أن يأتيَ الناقلُ إلى الجملة، فيُحصِّلَ معناها في ذهنه، ثم يُعبِّرُ عنها في اللغة الأخرى بجملة تُطابقُها في المعنى؛ سواءٌ استوت الجُملتان في عدد الكَلِمات أم اختلفتا)).

حنين بن إسحاق:

هو أبو زيد، حنين بن إسحاق العَبّاديّ، من نَصارَى (الحِيْرة) بالعراق، نَسطوريُّ النِّحْلة، سرْيانيُّ اللغة.

ولـ: «حنين بن إسحاقَ» كتبٌ كثيرةٌ متنوعةُ الموضوعات، ثم إنَّ بعضَها نَقْلٌ من اليونانية، وبعضُها إصلاحٌ لنقول سابقة، وربما كان بعضُها تأليفاً أيضاً.

وأكثرُ كُتُبه على طريقة: المَسألة، والجواب. وأهمُّها:

كتاب (التَرياق)؛ في أنَّ الطبيب الفاضلَ يجب أن يكون فيلسوفاً ـ وكتاب الحميات ـ وكتاب حفظ الأسنان ـ وكتاب (أوجاع المعدة)، وكتاب (السماء)، وكتاب (قاطيفورياس)، وشرح كتاب (الفراسة لـ: «أرسطو طاليس»)، وكتاب (إدراك حقيقة الأديان)، وكتاب (نوادر الفلاسفة والحكماء).

ثابت بن قرّة 211 هـ = 826م:

ولد في (حَرَّان) على دين الصَّابئة، وكان في أوّلَ أمره صَيْرفيّاً، وكان يُحسنُ العربيةَ والسريانيةَ، وقد سعى «ثابتُ» في حياته لأن يَرفعَ شأنَ طائفتَه الصابئية، فعَلَتْ مَنزلتُها، ثم أصبح هو رئيساً عليها.

ولـ: «ثابت» أرصادٌ حِسَانٌ للشمس، تَولاَّها بـ(بغداد)، وجمَعَها في كتاب، بَيَّنَ فيه مذهبَهُ في سنة الشمس، وما أدركه بالرَّصد في موضع أوْجِها، ومقدار سنِيِّها، وكميةِ حَركتِها، وصورة تعديلها.

وكُتُبٌ في الفَلَك: (حسابُ الأهلَّة)، (أوجه القمر).

وكتبٌ في الطِّبِّ: كتاب (الحصى المتولد في المثانة)، وكتاب (الجدري)، و(الحصبة).

إسحاق بن حنين توفي 298 هـ:

هو أبو يعقوب، إسحاقُ بنُ حنين بن إسحاق. شَهدَ أيّامَ «المعتمد» و«المعتضد» و«المعتذر»، وكان مُعاصراً لـ«ابن الرومي»، وكان «إسحاقُ» مثلَ أبيه: في النقل، وفي معرفته باللُّغات، وفصاحته فيها، إلاَّ أنَّ نقلَهُ للكتب الطبيَّة قليلٌ نادرٌ بالنسبة إلى ما يوجد من كثرة نقله من كتب «أرسطو طاليس»، في الحكمة وشُرُوحها إلى لغة العرب. ونقلَ كتابَ: (المقولات) و(إيساغوجي) لـ: «أرسطو».

قسطا بن لوقا ولد سنة 205هـ، توفي 300هـ:

يونانيُّ الأصل، ولكنه وُلِدَ في (بعلبك)، وذهب إلى آسية الصُّغرى، ثم عاد إلى (العراق)، وقد جَلَبَ معه تصانيفَ يونانيةً كثيرةً، ونَقَلَها إلى العربية، وكان عالماً في: الرياضيات، والفلك، والمنطق، والطب، والموسيقى. وكان بارعاً في اللُّغات: اليونانية، والسريانية، والعربية، جيدَ النقل؛ نقل أكثرَ الكتب اليونانية، كـ: كتاب (الجزء الذي لا يتجزأ) ـ (النوم والرؤيا) ـ (الاستدلال بالنظر) ـ (الفرق بين النفس والروح) . . . إلخ.

يحيى بن عَدي:

ولد الشيخ أبو زكريا، يحيى بنُ عَديٍّ في (تكريت)، ولَمَّا شَبَّ انتقل إلى (بغداد)، وتَلَقَّى العلومَ على يد الطَّبيبِ النَّسطوريِّ «أبي بشر مَتَّى بنِ يونسَ» وعلى يد «الفارابيِّ» وغيرِهما.

دافع عن إيمان الكنيسة السريانية، والمعتقدات النصرانية، وتوفي في (بغداد) عن إحدى وثمانين سنةً.

ونقل «يحيى بنُ عَديٍّ» كتابَ (ما بعد الطبيعة لـ: «أرسطو»)، وكتاباً آخرَ من السريانية إلى العربية، وكذلك فَسَّرَ كتباً لـ: «أرسطو»، منها: (طوبيقا) ـ (المقالة الثامنة من السماع الطبيعي) ـ فصل من كتاب (ما بعد الطبيعة) ـ (مقالة «الإسكندر» في الفَرْق ما بين الجنس والمادة).

ونقل «يحيى بنُ عديٍّ» عدداً من كتب العلوم والرياضيات، ولكن يبدو أنَّه لم يكن عالماً، أو رياضياً؛ فإنَّ فيما نقل كُتُباً تدلُّ أسماؤُها على تناقضِ محتوياتها.

كان للعرب معارفُ كثيرةٌ، أرشدتهم إليها التجاربُ والنظرُ، ونوعُ المعيشة في الصحراء؛ حيث: السماءُ الصافيةُ، والجوُّ المفتوحُ، وحاجتُهُم إلى المطر وهبوب الرياح. كلُّ ذلك لَفتَ نظرَهُم إلى السماء، فعرفوا شيئاً عن النجوم، وربطوا بها بعضَ ظواهر الجوِّ، ولكنَّهم لم يبحثوا في ذلك بحثاً علمياً، ولم يُدوِّنوه كما تُدوَّنُ العلومُ. وبالتالي لم يكن عندهم فلاسفةٌ كما هو عند اليونان. إنَّما الذي كان عندَهُم: الحكماءُ، والشعراءُ؛ الذين قاموا فيهم مقامَ الفلاسفة؛ بحيث تُعتبرُ أقوالُهم أمثالاً تؤثر في نمط الحياة، كما رُوي عن «لقمان الحكيم». و«أكثم بن صيفي»، و«زهيرُ بن أبي سُلْمى». بالإضافة إلى ما وصل إليهم من تعاليم الأديان السابقة؛ كـ: دين «إبراهيمَ عليه السلام، والنصرانية، واليهودية؛ التي انتشرت في «حميَر» و«كنْدة». أمَّا النصرانيةُ فكانت في «ربيعةَ» و«غسَّان». وكذلك ما نقلوه عن الفُرْس والرُّوم من القَصصِ المشتملة على المواعظ، والحكم عن طريق التُّجَّار الذين كانوا يتردَّدون إلى بلاد هؤلاء.

ثم جاء الإسلام عام 610م فوحَّدَ لُغتَهم ودينَهُم، ومَلَكَ الدِّينُ عليهم نفوسَهم؛ فكانت الحياةُ حياةً دينيةً، وسياسةُ الحكومة سياسةً دينيةً، والتشريعُ تشريعاً دينياً. لذلك كان البحث في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية إلى عام 132هـ بحثاً في الأمور الدينية وما يتعلَّق بها، وذلك للأسباب التالية:

1 ـ عزَّةُ الإسلام والمسلمين: ممَّا زادهم اتِّجاهاً نحو الدين.

2ـ اتِّساعُ الدولة الإسلامية: مما أدى إلى حدوث أمور جديدة لم تكن في عهد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا سبيلَ للحكم فيها إلاَّ بالاستعانة بقواعد الدين، فكان لا بُدَّ من الاشتغال به.

3 ـ انكبابُ المسلمين على القرآن الكريم دراسةً وعلماً: لما فيه من حكَم وعُلوم، وتشريع، ولَفْت نظر، وبلاغة. لهذا كلِّه كان مدارُ البحث في هذا العصر هو الدينُ، ومَن نُقل خبرُهُم من علماء هذا العصر هُم علماءُ الدِّين، وفي آخر عهد الدولة الأُمويَّة كانت لهم أبحاثٌ دينيةٌ، كـ: علم الكلام، وما بعد الطبيعة. فبحثوا في الحرية، والإرادة، والقدر، وخَلْق

القرآن، وبحثوا في: السياسة بحثاً مصبوغاً بالصِّبغة الدينية عن الخليفة وشروطه، وكان للخوارج دَورٌ في هذه المسائل السياسية وغيرها. ولَمّا جاءت الدولة العباسية 132هـ = 656م عَظُمت حضاراتُ الدولة الإسلامية؛ فأخذ المسلمون عن الفُرْس والرُّوم والهند، ونقلوا عقولَ الأمم التي سبقتهم، وخاصّةً اليونان والهند. وفي عهد «أبي جعفر المنصور» و«الرشيد» و«المأمون»، توسَّع السريانيون في ترجمة علوم اليونان وخاصَّة: الطبُّ، والهندسةُ، وتقويمُ البلدان، والفلسفةُ بفروعها من: طبيعيات وإلهيات، ومنطق، ونفس، وسياسة، وأخلاق. كلُّ ذلك نُقلَ إلى اللغة العربية؛ فتُرجمت كتبُ «أفلاطون»، و«أرسطو»، و«إقليدس»، و«جالينوس» و«بطليموس»، وشرحوها، وخَصَّص قسمٌ كبيرٌ من المسلمين حياتَهم لدراسة الفلسفة، وكان أغلبُهُم من العلماء والأطباء أكثر منهم علماء دين. على عكس فلاسفة الغرب في القرون الوسطى؛ فقد كان أكثرُهُم قساوسةً، ورجالَ دين. فقد تُرجمت كتبُ «إقليدس» في (الهندسة)، وكلامُ «أرسطو» في الإلهيات، وكان لهم أثرٌ ظاهرٌ في علم الكيمياء، والمعادن، والطِّبِّ، وعلمِ وظائف الأعضاء، واستكشفوا القوانين؛ ما لم يصل إليها اليونان قبلَهم، ولكنهم كانوا في علوم: المنطق، والنفس، والأخلاق، نَقَلةً أكثرَ منهم مبتكرين، وقد تأثَّروا بفلسفة «أرسطو»، والأفلاطونية الحديثة، وكان لهم الفضلُ على الغربيِّين في كلِّ ما نقلوه عن اليونان وما ابتكروه.

الأفلاطونية الحديثة:

هي مزيجٌ من الفلسفة والدين، وقد ظهر هذا المذهبُ في القرن الثاني الميلاديِّ، وسَمَّوه فلسفةَ «أفلاطون» الحديثةَ.

وأشهر مَن دعا إليه «أفلوطين»؛ الذي وُلِدَ في مصرَ عام 204م، ورَحلَ إلى (فارسَ)؛ فتعلَّم الفلسفةَ، ثمَّ عَلَّم في (روما)، ومات عام 654م. وكانت تعاليمُهُ مزيجاً من الفلسفة العلمية، والتصوُّف الدينيِّ. والذي دعا إلى اعتناق المسلمين هذه الفلسفةَ كونَها مصبوغةً بالصبغة الدينية، ثمَ تَطلَّعوا إلى فلسفة «أفلاطون»، و«أرسطو».

يعقوبُ الكنديُّ:

وقد لُقِّبَ بـ: (فيلسوف العرب)؛ لأنَّه عربيٌّ صميمٌ، تَبحَّر في الفلسفة، وكان تابعاً للفلسفة الأفلاطونية، وفلسفة «أرسطو»، أكثرَ منه فيلسوفاً مستقلاً، وكان مُترجماً كبيراً في عهد «المأمون» و«المعتصم»، وله كتبٌ وصل إلينا منها: (256) كتاب. وتوفِّي عام 260هـ.

أبو النصر الفارابيُّ:

المتوفى عام 334 هـ، وقد عاش في كنف «سيف الدولة» الحمدانيِّ، وكان يَعرفُ لغات كثيرةً، ويَبرَعَ في: الموسيقى، والرياضيات، واللغة، والفلسفة. وكان تابعاً للأفلاطونيةً الحديثة، مثلَ «الكنديِّ»، وكان مَعشوقه من فلاسفة اليونان «أرسطو». قال: إنَّه قرأ كتابَ النفس لـ: «أرسطو» مائةَ مرة.

وقد لُقِّب «الفارابيُّ» بـ: (المُعلِّم الثاني)، و«أرسطو» بـ: (المعلم الأول).

وكان «الفارابي» يرى: أنَّ القرآن والسُّنَّةَ حقٌّ، والفلسفةَ حقٌّ، والحقُّ لا يتعدَّد؛ لذا يجب أن تكون الفلسفةُ والإسلامُ مُتفقَين. وقد بحث «الفارابيُّ» أيضاً في السياسة في كتابه: (آراء أهل المدينة الفاضلة)، واختار من أشكال الحكومة: المَلكيّةَ الدينيةَ، ومَزَجَ في كتابه هذا بين آراء «أفلاطون» في (الجمهورية) وبين أقوال الشِّيعةِ في الإمام المعصومِ.

ومن فلاسفة العرب المسلمين:

جمعية إخوان الصفا:

التي اجتمعت في (البصرة) في منتصف القرن الرابع الهجريِّ، وكانت هذه الجمعيةُ سريَّةً. وذلك: لأنَّ المسلمين المُتديِّنين كانوا يكرهون الفلسفةَ ومَن يَشتغلُ بها، ويحاولون إيقاعَ الأذى بالفلاسفة، فألَّفوا إحدى وخمسين رسالةً؛ ضَمَّنوها كلَّ أنواعِ العلوم والمعرفة في عهدهم، وتُعتبرُ هذه الرسائلُ (دائرةَ معارف العرب).

وكانت تعاليمُ «إخوان الصفا» مزيجاً من أبحاث الأفلاطونية الحديثة، والتصوُّف، وما قاله «أرسطو» في العلوم الطبيعية، وما قاله الفيثاغوريُّون.

وقد ظُنَّ أنَّ هذه الجمعيةَ جمعيةٌ باطنيةٌ (إسماعيليَّةٌ)؛ لمَا جاء فيها من تعاليم الباطنية.

ثم جاء «ابنُ سينا» البخاريُّ (370 ـ 428هـ)، فكانت له شهرةٌ فائقةٌ في الفلسفة. وفلسفتُهُ تَقرُبُ من الفلسفة الأرسطاطاليسية الصِّرْفة، وكان كتابُهُ: (القانون) العُمدةَ في الطبِّ في القرون الوسطى عند الشرقيِّين والغربيِّين معاً.

وله الفضل في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلَّفاته العديدة، وخاصّةً: الإلهيات، والمنطق.

وقد اشتهر أيضاً عددٌ كبيرٌ من فلاسفة المسلمين، كـ: «البَيْرونيّ» و«ابن الهيثم» و«ابن مسْكَويه» وغيرهم.

وكان انتشارُ الفلسفة بين المسلمين سبباً في ظهور حركة جديدة، قام بها علماءُ الكلام، منهم: «أبو الحسن الأشعري». و«أبو بكر الباقلاّنيّ».

إلى أن جاء الغزاليُّ: (450 ـ 505هـ) فدَرسَ الفلسفةَ اليونانيةَ درساً دقيقاً، ثم حَملَ عليها حملةً شديدةً، وألَّف في ذلك كتابَه (تهافت الفلاسفة)، وكَفَّر بعضَ الفلاسفة؛ بسبب بعض تعاليمهم.

وقد بَيَّن أنَّ الفلسفة منافيةٌ لتعاليم الدين، ودعا الناسَ إلى الرجوع إلى دينهم الصحيحِ الخالي من الفلسفة، ورَغَّبَ في التصوُّف، وبَيّن أنَّه الطريقُ الحقُّ إلى الله تعالى.

وقد أثَّر في المسلمين تأثيراً بالغاً، وأعلى شأنَ التصوُّف والصوفيَّة، وحَبَّب ذلك إلى الناس، وسار على طريقته كثيرون من بعده.

الفلسفة الإسلامية
في المغرب (الأندلس) وشمال إفريقة

لقد ازدهرت الفلسفةُ في الأندلس أكثرَ من ازدهارها في الشرق؛ إذ إنَّ فلاسفة المغرب كانوا أكثرَ ابتكاراً من فلاسفة المشرق؛ حيث قلَّ، بل نَدَرَ الخلافُ في العقائد والمذاهب بينهم. فكلُّهُم مالكيٌّ، سُنِّيٌّ؛ إذ أخذوا الفلسفةَ عن أهل الشرق، فرحلوا إلى (فارس) عن طريق (القاهرة).

واشتغل الأندلسيُّون بـ: الرياضة، والعلوم الطبيعية، والتنجيم، والطِّبِّ، بعد أن نُقلَت إليهم كُتبُ «الفارابيِّ»، و«ابن سينا»، و«إخوان الصفا»، وقد تعاون المسلمون واليهودُ معاً على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس، ونَبغَ منهم كثيرون مع مقاومة العامَّة لهم. وأشهرُ فلاسفة الأندلس:

ابن باجّة: الذي اتَّبع تعاليمَ الفارابيِّ.

وابن طُفيل: وله كتاب (حي بن يقظان)؛ الذي بيَّن فيه: أنَّ الشرع يَتفقُ مع العقل، وقد تُرجِمَت قصَّةُ (حي بن يقظان) إلى اللاَّتينية.

ومن أشهر فلاسفة الأندلس على الإطلاق:

ابن رشد 520 ـ 595 هـ:

وكان يَعتبرُ «أرسطو» أكبرَ الفلاسفة، حتى إنَّه شَرحَ تعاليمَهُ، ودافعَ عن الفلسفة، وألَّف كتابَ (تهافت التهافت) رَدّاً على «الغزاليِّ».

وقال: ((إنَّ الفلسفة لا تُناقضُ الدِّينَ)). وألَّف في ذلك كتاباً سَمَّاه: (فصلَ المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال).

وأكثرُ مؤلَّفاته لا تُوجدُ بالعربية، بل طُبعَت باللاَّتينية في (البندقية) سنةَ: 1560 م في أحدَ عشرَ مجلّداً.

وله كثيرٌ من المؤلَّفات، تُرجمت إلى اللغة العبرانية.

وكانت لفلسفته شهرةٌ في الكنائس، والمدارس الأوربية منذ القرن الثالثَ عشرَ الميلادي.

وبانتهاء القرن السادس الهجريِّ وقف المسلمون عن البحث الفلسفيِّ، والنظر في العلوم الكونية. فلم يكن العلم إلاَّ نقلاً؛ فكان المعلِّمُ يُعلِّمُ ما سَمِعَ من أساتذته، والاختلافُ الذي يظهر منهم إنَّما هو اختلافٌ في الشَّكل لا في الجوهر، ولم يَنبُغ منهم نابغٌ مبتكرٌ إلاَّ «ابنُ خلدون» المتوفى عام 808 هـ؛ فإنَّه - بإجماع الغربيين والشرقيين - مُخترِعُ فلسفة التاريخ، أو: علمِ الاجتماعِ؛ حيث بَحثَ في أحوال العمران.

وقد كان العلم والفلسفة قد سارا شوطاً بعيداً في بلاد الغرب، وبقيت بلادُ الشرق جامدةً. وبدأ الشرقُ يُغالبُ النومَ والنومُ يَغلبُهُ، ويُصارِعُ الكسلَ والكسلُ يَصرَعُه، إلى أن انتبهَ متأخِّراً، وأحسَّ بتأخُّره، ونُقصان علمه، وضرورة تَعلُّمه؛ ليُشارِكَ غيرَه في شؤون الحياة، وليكونَ له مدنيةٌ، وعلمٌ، وفلسفة تتفق مع ذَوقه وجَوِّه ودِينه.